توسع السماء

د. محمد دودح
باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد:

جوابا على السؤال حول حالة الكون الآن: (هل هو في اتساع مستمر إلى أن تضم جوانبه فجأة أم هو في ارتداد قد بلغتنا علاماته، وهل الجواب في القرآن والعلم سواء)؛ أقول مستعينا بالعلي القدير سائله سبحانه وتعالى العون والتوفيق:

أعلن أدوين هابل Edwin Hubble في العام ١٩٢٩ ملاحظة كانت حجر الأساس في المفهوم الحديث حول طبيعة الكون وتطوره، فقد لاحظ أن المجرات العظمى تبدو في انحسار وكلما زاد بعدها زاد معدل الانحسار مما يعني أن مادة الكون في الماضي البعيد كانت في حيز ضئيل تزايد بالاتساع كما تتباعد المواد عند الانفجار، ولذا نالت تسمية "الانفجار العظيم Big Bang" قبولا واسعا في تفسير نشأة الكون وتشكل مكوناته بالاتساع Expansion، ومعدل انحسار المجرات قيمته ثابتة وفقا لبعدها ويسمى بثابت هابل وتقديره حاليا: ٢٤ (٣٠-٢٠) كم/ ثانية ولذا يمكن استنتاج عمر الكون (عمر الكون = سرعة الضوء\ثابت هابل×مليون) وهو حوالي: ١٢,٥ (١٠-١٥) بليون سنة، ولما كانت فكرة مركزية الأرض للكون قد دفعتها مشاهدات سابقة فلم يبق إلا قبول مبدأ التجانس Uniformity في تباعد المجرات أو اقترابها بحيث يعاين المراقب من أي موقع في الكون نفس ما يعاينه المراقب على الأرض، ولما كان الكون حادثا وليس أزليا والتوسع المعاين يعكس حالة المجرات العظمى في الماضي البعيد عندما صدر الضوء المحدود السرعة منها (حوالي ٣٠٠ ألف كم\ثانية) منذ بلايين السنين فليس مستبعدا أن يكون بناء الكون آيل للانهيار والزوال خاصة أن المجرة الأقرب على سبيل المثال وهي المرأة المسلسلة Andromeda تبدو في اقتراب بسرعة حوالي ٣٠٠ كم\ثانية[١]، فإذا شمل التجانس ابتعاد المجرات واقترابها فليس مستبعدا أن يكون الكون حاليا ينطوي في انكماش بلغتنا شواهده من الطرف الأقرب ولم تصلنا بعد من المجرات الأعظم إلا شواهد الانحسار في الماضي نتيجة لبعدها الشديد، والقول إذن بأن الكون في اتساع مستمر يغفل عن اقتراب أقرب المجرات والسرعة المحدودة لضوء المجرات الأعظم ذات الأبعاد الهائلة وهو في جانب وهم أزلية المادة والتشكيك في مبدأ حدوث الكون واستبعاد نهايته.

واكتشاف أدوين هابل بأن الكون يبدو في توسع مما يحتم أن تكون له بداية قد أزعج فئة تميل للإلحاد فحاولوا التشويش عليه تهربا من مبدأ الخلق بفرضيات يجمعها وهم سرمدية الكون تحت مسمى الحالة الثابتة Steady state، ولو كان الكون ذو بداية أكبر كثافة وأكبر حرارة نتيجة لانضغاط المادة في حيز ضئيل لأصدر في كل اتجاه أشعة تدل على درجة الحرارة الهائلة تلك التي لا يبلغها اليوم قلب أي نجم مهما بلغت عظمته، ولذا جاءت الضربة القاصمة لتلك الفرضيات قبل نهاية القرن الماضي فتوارت إلى الأبد عندما اكتشف أرنو بنزياس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson تلك الأشعة عام ١٩٦٤ بغير قصد، وتحتمت البداية بلا منافس وتزاحمت الاحتمالات حول كيفيتها، واعترف الفيزيائي هاوكنج قائلا: "إن كونا ذو بداية يستحيل أن يكون بلا خالق"، فوحدة البداية تقطع بوجود الخالق وبالطبع وحدته ناهيك عن التصميم المتقن والنظام الثابت الذي أقر هاوكنج أنه "عماد تاريخ العلم التجريبي أجمعه"[٢].

ويبحث الفيزيائيون حاليا عن أدلة تكشف نهاية الكون، وأحد الأساليب لتأييد احتمال الانكماش أو الكون المغلق Closed universe اصطلاحا هو تجاوز القيمة الحرجة للكثافة الوسطية للمادة في الكون وقيمتها: ١٠-٢٩ جم\سم٣؛ أي ما يعادل حوالي ٥ ذرات أيدروجين في المتر المكعب وهي في حدود القيمة المحسوبة حاليا للمادة المنظورة، وللمقارنة تبلغ قيمة كثافة الماء ١ جم\سم٣ أي ما يعادل حوالي ٥٠٠ بليون بليون بليون ذرة أيدروجين في المتر المكعب، والمعتقد حاليا وجود مادة غير منظورة بكميات هائلة تسمى المادة السوداء Black matter ترجح انكماش الكون.

وكلما انكمش الكون تزايدت كثافته ومع تلاشى المسافة تصبح لا نهائية، ولكن تلاشي المسافة يعنى انعدام المادة بحيث تتلاشي الكثافة، وهذا يعني توقف القوانين وبلوغ حالة يستوي فيها العدم والوجود في لحظة الخلق العظيم حيث وجدت مادة الكون فجأة من عدم، تلك اللحظة المبهرة تسمى فيزيائيا لحظة التفرد Singularity لتوحد كافة تنوعات المادة في بنية أساسية واحدة، وفي اللحظة التي يحتمل إعمال قوانين الفيزياء عندها كان عمر الكون ١٠-٤٣ ثانية (زمن بلانك) وتسمى الكثافة حينذاك كثافة بلانك Planck density وتبلغ ١٠ ٩٣ جم/سم٣ أو ما يماثل ١٠٠ بليون مجرة مكدسة في حيز قطره ١٠-٣٥ متر (مسافة بلانك)؛ أي أقل ١٠٠ ألف مرة من قطر نواة أصغر ذرة (١٠-١٥ متر)، ولك أن تقول أن الكون كان عدما عند اللحظة صفر فلا تعمل قوانين الفيزياء إلا مع توفر المادة بعد أجزاء ضئيلة للغاية من أول ثانية، فصفحة الكون إذن ليست أبدية وإنما ضمن منظومة طوي بعضها الزمن والبعض لم يظهر بعد للوجود وإنما الكون ينحني على نفسه وينطوي في امتداد مستمر نحو نهايته إن شئت التعبير بالاستمرار، والتعبير الأدق أن يقال أنه كان حين البناء في اتساع كما ترتفع طوابق البيت حين البناء وعندما تحين ساعته يُعكس الاتجاه ليعود لأصل حالته، والقول إذن بأن الكون في اتساع مستمر يغفل عن قوانين تطوره ويماثل القول بالخلق الفجائي للكائنات بلا أطوار.

وقد بلغ التمثيل في القرآن الكريم لحقائق الكون الخفية زمن التنزيل الغاية في الدقة والوفرة والاستيعاب بما لا يعارض حقيقة مكتشفة والقمة في التلطف بما لا يلفت عن غرض، فوصف الكون بالبناء وجاء بتعبير السماء الدال على العلاء بالنسبة للمتطلع من الأرض في مرونة يحدد مداه السياق، وجعل بروج النجوم لبنات والوجود آفاق بتعبير السماوات، ووظف دلالات لفظ السماء لتشمل طيفا واسعا من الكيانات التي تمتد فوق سطح الأرض ولذا طالها فرع شجرة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ﴾ إبراهيم ٢٤، وبعيدا عن تصورات الكيفية قبل استقرار الحقائق فإن القرآن حاسم في جعل تنوعات التجمعات النجمية باسم البروج فوق عالم الكواكب الأدنى حيث تسبح الشمس والقمر في محيط الوجود حولنا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ البروج ١، وقرائن السياق قد تدل على الإطلاق فتمد دلالة لفظ السماء لتستوعب الكون الفيزيائي Physical universe أجمعه.

ولا يفوتك أن التعبير عن التوسع حين البناء برفع السماء تمثيلا جاء فيه فعل (الرفع) بصيغة الماضي بلا استثناء مما يقصر الاتساع على وقت البناء ويعارض القول باستمراره إلى اليوم، يقول تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ" الغاشية ١٧و١٨، ويقول تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الرحمن ٧، ويقول تعالى:﴿ اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الرعد ٢، وجاء التعبير عن الرفع بلفظ الخلق بيانا لتكامل البناء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لقمان ١٠، إنه عمل كامل يمكن معاينته اليوم ولذا ورد بيان خلقه بفعل (البناء) بالماضي كذلك بلا استثناء، يقول تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاهَا﴾ النازعات ٢٧و٢٨، ويقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ق ٦، ويقول تعالى: ﴿وَالسَّمَآءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ الشمس ٥، وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات ٤٧؛ فعل (البناء) بالماضي يفيد التكامل ويرجح أن (مُوسِعُونَ) أي قادرون على إعادته كقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ البقرة ٢٣٦، أي القادر خاصة أنه غير (مُوَسِّعُون) أي نوسعها دوما.

فهل الكون في القرآن في ارتداد؟؛ هذا هو صريح الآيات فالموعد قريب والكون كله كمثقلة على وشك الوضع والأمر قد أتى ولم يصل بعد تأكيدا لتقدير سرعته ولا دليل على أن سرعة الانتقال عند نهاية الكون ستصبح لحظية فجأة وتخرق قانونا يشهد بوحدة التقدير، وإذا كنا نشاهد الأطراف البعيدة في انحسار فذلك حالها يوم أن انطلق في الماضي السحيق الضوء المرصود الآن أما حالها آنيا فلا يعلم به أحد سوى الله تعالى وحده، أليس الضوء مقدر السرعة؟ فكيف نقرأ إذن رسالة سُطِّرَت منذ بلايين السنين عند تشييد الطوابق قبل اكتمال ارتفاع هيكل البناء وكأنها كُتِبَت الآن؟، وإن شئت أن تنال ما تستحقه الحقيقة من فزع فاسأل الجيران من المجرات في أقرب الآفاق تخبرك أقربهن على بعد ٢ مليون سنة ضوئية أنها تقترب مسرعة ولا نعلم شيئا عنها الآن، ولم يقل القرآن أن الكون في اتساع مستمر، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات ٤٧؛ لا يعني دوام التوسع بعد تكامل البناء وإلا ما كانت للنهاية ساعة، وفي اللغة اسم الفاعل "مُوَسِّعُون" (بضم الميم وفتح الواو وتشديد وكسر السين) يعني دوام التوسعة ولكن الذي في الآية ﴿مُوسِعُون﴾ (بضم الميم وتسكين الواو وكسر السين) ويعني دوام القدرة، والقدرة في مقام الخلق تعني إعادته.

وأصل اللفظ (مُوسِعُون) أي لذو سعة تمثيلا للقدرة والاستطاعة بالامتداد وتكشف قرائن السياق ماهية تلك السعة، فتشمل أحوالا كسعة المكان وسعة الرزق وسعة الثراء وسعة القوة والقدرة والاستطاعة وفي مقام خلق الكون تعني القوة والقدرة والاستطاعة على إعادته وتتضمن الدلالة سياقا على بالغ سعة امتداده إيغالا في بيان العلم والقدرة والعظمة فتعني ضمنا التوسعة الهائلة حين البناء، قال ابن جزي: "وسع يسع سعة من الاتساع ضد الضيق والسعة الغنى والواسع اسم الله تعالى أي واسع العلم والقدرة والغنى والرحمة"[٣]، وقال البغوي: "(وإنا لموسعون) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لقادرون"[٤]، وقال الزمخشري: "{وإنا لموسعون} لقادرون من الوسع وهو الطاقة"[٥]، وقال ابن حجر: "قوله لموسعون أي لذو سعة وكذلك (على الموسع قدره) يعني في قوله تعالى: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ البقرة ٢٣٦، أي من يكون ذا سعة.. يعني القوي (القادر) وروى بن أبي حاتم من طريق بن أبي نجيح قال (وإنا لموسعون) قال أن نخلق سماء مثلها"[٦]، وقال السمعاني: "قال مجاهد معناه يسع قدرتنا أن تخلق سماء مثلها"[٧]، وقال السيوطي: "عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله (وإنا لموسعون) قال: لنخلق سماء مثلها"[٨]، وقال الرازي: "وبناء السماء دليل على القدرة على خلق الأجسام ثانيا كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىَ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىَ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ يس ٨١"[٩].

وفي قوله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَآءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ النازعات ٢٧و٢٨؛ التعبير بالارتفاع هو فيما يمكن أن يدرك الناظر حاليا من سطح الأرض، أي جعله في الماضي مرتفعا كما يمكن أن يدرك الآن فدل على أن فعل الرفع كان حين البناء وليس الآن ولذا ورد التعبير بالماضي، قال ابن كثير: "قوله تعالى (بناها) فسره بقوله (رفع سمكها فسواها) أي جعلها عالية البناء.. مكللة بالكواكب (والنجوم)"[١٠]، وقال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بين.. أنه بناها بين بعد ذلك.. كيف بناها.. فقال تعالى (رفع سمكها)، واعلم أن امتداد الشيء إذا أخذ من أعلاه إلى أسفله سمي عمقا وإذا أخذ من أسفله إلى أعلاه سمي سمكا فالمراد برفع سمكها شدة علوها"[١١]، وقال السيوطي: "عن مجاهد رضي الله عنه في قوله (رفع سمكها) قال رفع بنيانها"[١٢]، وقال ابن جزي: "السمك غلظ السماء وهو الارتفاع"، وقال أبو السعود: "رفع سمكها بيان للبناء أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض وذهابها إلى سمت العلو مديدا"[١٣]، وقال البيضاوي: "(رفع سمكها) أي جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها الذاهب في العلو رفيعا (عاليا)"[١٤]، وقال الألوسي: " فالمعنى جعل ثخنها مرتفعا في جهة العلو ويقال للثخن سمك لما فيه من ارتفاع السطح الأعلى"[١٥].



والقرآن الكريم يؤكد على قرب ساعة الميعاد؛ يقول تعالى: ﴿أَزِفَتْ الْآزِفَةُ﴾ النجم ٥٧، ويقول تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ الأنبياء ١، ويقول تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ محمد ١٨، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأعراف ١٨٧، وفي كل هذا كما قال ابن كثير وغيره (رحمهم الله جميعا): "يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ النحل ١"[١٦]، فكيف يُستبعد إذن أن يكون الكون في ارتداد والقوى تمضي مسرعة لا تحتاج مزيد استعجال ليكتمل طي كل الصفحات!، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَآءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ الأنبياء ١٠٤، والسجل مسطح يُطوى يحوى كل الصفحات ولا يظهر منه إلا طرفه غير المحجوب وهو أدق وصف للكون الفيزيائي المنحني المترابط البناء.



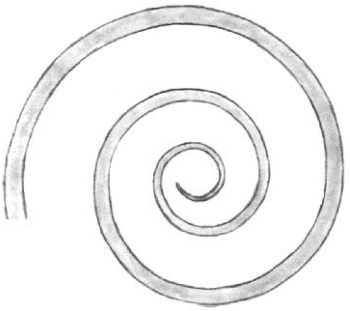

وإذا كانت الثقوب السوداء تكون منظومة متشابكة تحفظ بناء السماء وتلتهم كل ما حولها لتنتهي في ثقب أسود واحد كبير يعلن عن هدم كل البناء فما أشبه طياته حينئذ بجانب السجل المكتمل الطي، فتأمل الدقة المتناهية في التعبير!، وأما بدء الخلق فحقيقة ساطعة قضت إلى الأبد على فرضية الكون الأزلي وكشفت زيف مستند مزعوم لعله يسند الإلحاد فطواه الزمن، ويكفي إعلان القرآن بجلاء عن كيفية الابتداء والانتهاء قبل أن يدركها بشر كدليل حاسم على الوحي، يقول العلي القدير: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِّكُلّ نَبَإٍ مّسْتَقَرّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنعام ٦٦و٦٧.

---

[١] The First Three Minutes, Steven Weinberg, p30

[٢] A Brief History of Time, St. Hawking, P122 & P140

[٣] التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي المتوفى سنة ٧٤١ هـ، دار الكتاب العربي لبنان ١٤٠٣ ط٤،ج١ص٢٩.

[٤] معالم التنزيل للحسن بن سعيد الفراء البغوي المتوفى سنة ٥١٦ هـ، دار المعرفة بيروت ١٤٠٧ ط٢، ج٤ص٢٣٤.

[٥] الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى سنة ٥٣٨، دار إحياء التراث بيروت، ج٤ص٤٠٧.

[٦] فتح الباري شرح صحيح البخاري لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، ج ٨ ص ٥٩٩ .

[٧] تفسير أبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني المتوفى سنة ٤٨٩ هـ، دار الوطن الرياض ١٤١٨، ج٥ص٢٦٢.

[٨] الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ت ٩١١ هـ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م، ج٧ص٦٢٣.

[٩] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لابن خطيب الري فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١، ج٢٨ص١٩٣.

[١٠] تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ، دار الفكر بيروت ١٤٠١، ج٤ص٤٦٩.

[١١] التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب لابن خطيب الري فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١، ج٣١ص٤٣.

[١٢] الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ، دار الفكر بيروت ١٩٩٣م، ج٨ص٤١١.

[١٣] تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي المتوفى سنة ٩٥١ هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٩ص١٠١.

[١٤] أنوار التنزيل وأسرار التأويل لأبي سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي المتوفى سنة ٧٩١ هـ، دار الفكر بيروت ١٤١٦، ج٥ص٤٤٨.

[١٥] روح المعاني لشهاب الدين الألوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٣٠ص٣١.

[١٦] تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء اسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ، دار الفكر بيروت ١٤٠١، ج٤ص٢٦١.